أتريد أن تبرأ

لما أراد السيد المسيح الذي هو الطبيب الحقيقي لأجسادنا ونفوسنا أن يمنح الشفاء لمريض بركة بيت حسدا سأله أولاً :*"أتريد أن تبرأ"* (يو٥:٦). قد يبدو هذا السؤال في غير محله بالنسبة لكثيرين إذ قد يستعجبون متسائلين: أليس من البديهي لإنسان به مرض منذ ثمان وثلاثين سنة أن يكون ليس فقط مريداً للشفاء بل تواقاً إليه ومنتظره بفارغ الصبر؟ فلماذا إذاً يسأله السيد المسيح مثل هذا السؤال العجيب؟

في الواقع يذكر لنا الكتاب المقدس أن السيد المسيح لم يسأل مريض بركة بيت حسدا فقط عن إرادته من جهة الحصول على الشفاء لكنه سأل أيضاً الأعميان:*"ماذا تريدان أن أفعل بكما؟"* (مت٢٠:٣٢)، وسأل أيضاً بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس:*"ماذا تريد أن أن أفعل بك؟"* (مر١٠:٥٢). وهنا نتعجب أيضاً من غرابة السؤال الذي قد يبدو في غير محله، فمن البديهي لأناس عميان يصرخون وراء يسوع صانع معجزات الشفاء أن يكونوا يريدون منه أن يمنحهم البصر. فلماذا أصر إذاً أن يسألهم أولاً عن إرادتهم؟

ألا يذكرنا هذا السؤال بالقواعد المتبعة في المستشفيات في العالم كله؟ فعادة ما تشترط إدارة المستشفى أن يقوم المريض، أو من ينوب عنه، بالتوقيع على الموافقة على أي تدخل جراحي قد يودي بحياة المريض أو يتسبب في أية مضاعفات طبية، بشرط أن يكون المريض أو من ينوب عنه في التوقيع ذا إرادة حرة مستنيرة. وفي حالة رفض المريض التوقيع بالموافقة تمتنع المستشفى عن تقديم هذا التدخل العلاجي حيث أن هذا الإجراء هو إجراء إحترازي تتخذه المستشفى لكي تعفي نفسها تماماً من أية مسئولية قانونية في حالة حدوث أية مضاعفات.

لكن هل السيد المسيح يتساءل عن إرادة الشخص من جهة الحصول على الشفاء كإجراء إحترازي أيضاً؟ ماذا لو كان مريض بركة بيت حسدا لم يرد الشفاء هل كان يسوع سيشفيه أيضاً؟

لكي نجيب على هذه الأسئلة يلزمنا أن نعود لقصة سقوط الإنسان. فالله خلق آدم على صورته ومثاله لكنه لم يعصمه من السقوط حيث أعطاه إرادة حرة ليختار بها إما أن يميل نحو الله أو بعيداً عنه. هذه الإرادة الحرة كانت علة سقوط آدم وعصيانه بسبب إنحرافها

بعيداً عن الله. وكما لم يفرض الله على آدم أن يطيعه، هكذا لا يفرض السيد المسيح خلاصه على الإنسان. هذا الخلاص مرهون بإرادة الإنسان، فما لم تتقدس تلك الإرادة أولاً وتقر علانية أنها تميل نحو الله لن يصير الخلاص فاعلاً فيه. لعل هذا هو ما جعل القديس أوغسطينوس يقول: "إن الله الذي خلقك بدونك لا يريد أن يخلصك بدونك".

الله *"يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون"* (١تي٢:٤). وإرادة الله تحمل في ذاتها قدرته، فالله عندما يريد يقدر *"إن أردت تقدر"* (مر١:٤٠). لكن الله لا يريد ما لم يُرِد الإنسان أولاً *"كم مرة أردت...ولم تريدوا"* (لو١٣:٣٤). وإرادة الإنسان تختلف عن إرادة الله في أنها لا تحمل في ذاتها قدرة. لكن عندما تميل إرادة الإنسان غير القادرة في ذاتها نحو الله فإنها تتحد بإرادته القادرة في ذاتها وعندئذ تحصل لذاتها على قدرة الله. بالتالي لا يكون اشتراط الحصول المسبق على موافقة الإنسان على عمل الله الشفائي عملاً احترازياً ليعفو الله الذي هو الطبيب من أية إلتزامات، لكنه عمل محبة فائق للعقل يضمن به الله للإنسان الحصول على كل قدرة الله الشافية المخلصة. فهذا هو إلتزام الله من نحونا طالما نريد. والروح القدس يعمل فينا لكي نريد، ورتب ألا تخلو الصلوات الطقسية اليومية من إعلانات صريحة وضمنية متواترة عن ميل إرادتنا نحو الله. نعم يا رب "نتبعك بكل قلوبنا، ونخافك، ونطلب وجهك". آمين